قرأت في العدد الماضي من «الآداب»

الحبر.. والشعر.. والنار!

بقلم نزار قباني

انا في بيروت أشرف على طبع « قالت لي السمراء ». اصابعي مغمسة بدم المطبعة الاسود، واصابع المطبعة مغمسة بدمي انا . قميصي منفتح واكمامي منشمرة ، وبقع الزيت والهباب ولهاث المحابر تتجمع على جبيني وثيابي لتجعلني كالخارجين من مناجم الفحم ، كالكوماندوس العائدين من غزوة ليلية ، كعودة المركب المغامر من مرافيء اللؤلؤ ... والكنوز ... والسبايا .

هل تعرفون معنى اصدار ديوان شعر ؟ معنى دفعه الى المطبعة .. أنتم يامن تحملون الكتاب الى مضاجعكم الدافئة الطرية وتنيرون مصباحا صغيرا الى جانب السرير وتغرقون رؤوسكم الكسلى في ريش مخداتكم اللينة وتتناولون بين الحين والحين جرعة من شراب ساخن او مصة من لفافة نصف مطفأة ؟ هل تتصورون وانتم في غرف نومكم الدفيئة اية رحلة طويلة قطعها الحرف قبل ان يتسلق اصابعكم ويذوب في سواد احداقكم ؟

كنت اظن ان مهمة الحرف تنتهي بمجرد ان يقال ... بمجرد ان ينفصل عن شفة صاحبه . اليوم اعرف مدى خطأي . اليوم فقط اكتشف ان الحروف التي نكتب هي كالالكترونات التي تشكل مادة هذا الكون لا تهدأ ابدا . انها تتحرك ... وتتوالد .. وتتكسر وتنتقل من رأس الى رأس كما تنتقل موجات الضوء وذبذباته بين الكواكب والشموس المشتعلة .

الفن ليس اذن كسلا واسترخاء وبطالة كما يتصور البعض . والشاعر ليس ذلك الطفل الاسطوري القزحي العينين الذي يقتات وردا ويتمرى في بللور المغارب البنفسجية . الفن الصحيح هو يقظة قبل ان يكون خدرا وحلما ، صحة قبل ان يكون مرضا ، تنظيما قبل ان يكون فوضوية ، مسؤولية قبل ان يكون غيبوبة واستلقاء ، عملا مدروسا قبل ان يكون صدفة .. ولفح حرائق قبل ان يكون بردا وسلاما .

انا في المطبعة اطارد الفواصل الجامحة ، واناديء النقاط المتمردة .. اضم اجفاني على الضمة .. وافتحها للفتحة .. واسقي الدواليب الدائرة زيت قلبي ..

وفي زحمة العمل ، وبين الوف النسخ المتراكمة امامي كبيدر شعر ... يرن جرس التليفون ويرتفع صوت سهيل ادريس نزقا ، حارا ، لبنانيا « يا نزار .. ستنقد قصائد العدد الماضي من الآداب » قلت : هل تعلم في اية حالة لا شاعرة يوجد نزار .. انني على استعداد لتنفيذ اي عمل تطلبه مني باستثناء نقد الشعر .. قال سهيل : ستنقد قصائد العدد الماضي بالرغم من الحالة اللاشاعرة التي أنت فيها ... لان الحالات الشاعرة اذا كانت ضرورية لكتابة الشعر فانها غير ضرورية لكتابة بحث في النقد .. »

وعبثا حاولت ان اهرب من هذه المهمة لان سهيل لا يريد ان يفهم معنى اللحظة المؤاتية ... ويريدني ان اكتب له كيفما اتفق .. انني اكره « كيفما اتفق » هذه ولاسيما في الانتاج الفني ، فالفن في رأيي لا يعرف المصادفات .

فعلى مسؤولية سهيل .. على مسؤولية دواليب المطبعة التي حفرت دروبا في اعصابي .. اكتب المخطط السريع الذي اؤثر ان اسميه « انطباعا » او « ملاحظات اولى » على بعض قصائد العدد الماضي من الآداب . بعد هذا التحفظ بامكاننا ان نبدأ .

خمس اغان للالم ـ نازك الملائكة

سمفونية حزينة تتألف من خمس حركات . ذكرتني بالـ Symphonie Pathétique

ككل السمفونيات المدروسة تتألف من عوالم لها استقلالها وبناؤها الخاص مع وجود نواة مشتركة تربط هذه العوالم المنفعلة بخيط مشترك . والخيط الرابط في سمفونية نازك الملائكة هو الحزن . حزن رمادي هادىء يشابه مغارب البلاد السكندنافيه .. يشابه احجار العيون السود .

نازك الملائكة شاعرة تساوي ثروة وهي احدى البنايات الشعرية التي قل ان ارتفع مثلها في الادب النسائي في تاريخنا . شعر النساء في ادبنا فطير ولين العظام وقد شاركت عوامل حياتية واجتماعية ودينية ووراثية في اعاقته وافقاره وتخلفه . ولقد كان حتما على شاعرة مثل نازك الملائكة ان تأتي لتمزق الاسطورة .. اسطورة تفوق الرجل على المرأة في ميدان العطاء الذهني ، ولتقود هي ورفيقتها فدوى طوقان الى فتوحات شعرية تقوم لها الذرى وتقعد .

خمس اغان لكل واحدة مفتاحها الصوتي الخاص بها . وتنوع الاصوات في هذه السمفونية الحلوة هو اجمل ما فيها . ففي الاغنية الاولى روعة الاكتشاف ، وفي الثانية حرارة التساؤل، وفي الثالثة جموح التمرد، وفي الرابعة روعة التسامح والمهادنة .. وفي الخامسة سمو الصوفية والفناء في المعبود .

لقد سيطرت نازك ـ كالمايسترو المتمكن من فنه ـ على جميع تفاصيل الايقاع وادركت بحاسة موسيقي اصيل

جزئيات الصوت ومركباته ولاسيما في الاغنية الاخيرة حيث وصل النغم الى مرتبة ذكرتني بأجواء المعابد القديمة وزرعتني شمعة بين الشموع واعواد البخور المحترقة. ولا يخون النغم نازك الا في الاغنية الثانية حيث تفقد السيطرة على عصا القيادة ...

نأتي بعد ذلك الى طفل نازك الملائكة المدلل. اعني الالم. انني لا اكره الاطفال ولاسيما هذا الطفل (الناعم المستفهم العيون) . ولكنني لا اسمح لهذا الطفل ، لاي طفل ، ان يقيم البيت من حولي ويقعده ويرمي بالمقاعد والمناضد فوق رأسي ويحرق كتبي واوراقي وستائري وانا قاعد تحت الانقاض اصفق لهذا الصغير الشقي ... والثم يده ... واسأله ان « يسامحني يدا وفم ... » انا لا احب هذا النوع من التربية الاميركية للاطفال . واذا كانت نازك ـ كأنثى خاضعة لقوانين الامومة ـ تريد ان تمنح طفلها حرية تسمح له ان يشد شعرها ويقطع ثيابها ويترك على خدها آثار اسنانه واظافره ، وهي ضاحكة صابرة ، فانني اخشى ان تصبح نازك ـ اذا استمرت في تسامحها ـ لعبة في يد طفلها يتصرف بها كما يريد ...

يا نازك!...

وددت لو ارسلت لي طفلك الحرون في زيارة قصيرة .. اذن لأرحت اعصابك منه ومن تخريبه وطغيانه وانقذت فنك الكبير من سلطة هذا الديكتاتور الصغير الذي لم يترك صفحة من صفحات « قرارة الموجة » الا ودمغها بأصابعه الشاحبة (اغنية للحزن ـ مقدم الحزن ـ الزهرة السوداء) نريد « اطفالا » لك يملأون بيتك وقصائدك مرحا وغناء وزقزقة.. لا اطفالا لا يعرفون سوى البكاء .. والتخريب.. والتعلق بأثواب امهم الشاعرة الصديقة .

رجل من الداخل ـ مجاهد عبد المنعم مجاهد

قرأت قصيدة مجاهد اكثر من عشر مرات . اردت ان اتخذ منها موقفا . قرأتها مكتوبة بخط يده في (دار الآداب) واوصيت صديقي سهيل بنشرها وانا لا اعلم انها ستعود الى يدي مرة اخرى لانظر فيها كناقد .

يجذبني الى هذه القصيدة دافع خفي . فأنا اقلبها بين يدي فرحا كفراشة غريبة الجناح ، كزهرة برية انفتحت في مناخ قطبي او استوائي ، كفستان لم تبح خزانة الجبيبة بلونه بعد ... قصيدة مجاهد لا تعطي نفسها بسرعة ولا تموت بين أصابع القارىء كما يموت اكثر الشعر . ان ذراتها الجمالية يحطم بعضها بعضا فتشتعل من هذا التصادم الحروف واحدا بعد واحد .. وتضيء الفواصل .. حتى يتهيأ للقاريء ان طريقه مزروعة قناديل .. وحرائق..

ربما كانت طريق مجاهد متوحشة ، كثيفة الطحالب ، غير مألوفة الاقليم . ولكنها طريق على كل حال . انه يحفرها بضلوعه واظافره وريش اجفانه . ونحن مع كل فاتح مغامر ... مع كل من يضيف ولو حصاة صغيرة الى بناية القصيدة العربية . اما المتسكعون على طرقات الاخرين ، المنتفعون بمحاصيلهم وخيراتهم فلن ينظر اليهم تاريخ الادب الا كما ينظر علم النبات الى دودة القطن ..

(رجل من الداخل) واحدة من انجح القصائد التي قرأتها في معالجة مشكلة اجتماعية معينة وهي هنا الفقر والبطالة. لقد كنت دائما اقول للملتزمين ان شرف الموضوع وحده لا يكفي ليجعل القصيدة قصيدة بالمعنى الصحيح اذا لم يتوفر لها الكمال الفني في الشكل والاداء .

ان (رجل من الداخل) مثل ناجح للموضوع الكبير الذي يعالج باسلوب كبير .

على ان هذا لا يمنعنا من ان نأخذ على مجاهد ما يلي :

١ ـ طغيان المادة الخام عليه بشكل افقده السيطرة على حاسة الانتقاء والفرز .

ففي الشعر علينا ان نقول (أحسن) ما عندنا لا (كل) ما عندنا والا انقلبنا الى باعة متجولين ننادي على ما نريد بالشكل الذي نريد . وهذا يتنافى وطبيعة الشعر .

نزار قباني

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

لا غنى لك عن :

حبيب العمر

المجلد الضخم الذي يرشد الجنسين الى أفضل السبل لاختيار الشريك الآخر وكيف تقضي معه حياة زوجية كلها شهر عسل دائم وخالية من المشاكل العاطفية والجنسية والاجتماعية .

احدث مؤلفات

كامل مهدي

نشر وتوزيع:

المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

٦٠٠ صفحة مع لوحات فنية ـ الثمن ٥ ليرات

القصائد

بقلم نزار قباني

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

٢ـ لم يكن من الضروري ان يملأ مجاهد ستة اعمدة من صفحات «الآداب» ليعكس لنا صورة رجل عاطل عن العمل يدور في شوارع القاهرة وفي رأسه فكرة انتحار . ان مجاهد ضعيف امام طوفان ثقافته . انه يريد ان يضع جميع ما في رأسه على اول ورقة تصادفه .. وهذا ما اوقعه في نثرية وصلت في بعض مراحلها الى درجة ذكرتني بحكواتية مقهى الفيشاوي في الازهر ..

٣ ـ انا من اول القائلين بالتوليد اللغوي وبتفاعل الكلمات مع الحياة وبأن يترك للشعراء حرية نسبية تتيح لهم ان يقوموا ـ ضمن حدود الذوق الخاص ـ بتوليدات واضافات لغوية يستلزمها التطور وامتداد آفاق الحضارة . ولكنني أقف متحفظا امام « فيترينات » باتا .. وشملا .. واوركو .. وصيدناوي .. واعلانات البيبسي كولا ..

انني اقدر تماما ما تعنيه هذه الاسماء الضخمة بالنسبة لجائع .. ولكنني اعود لاسأل السؤال من جديد :

« أيتحتم علينا في الشعر ان نقول **كل** ما عندنا .. ام **احسن** ما عندنا ؟ »

انني في جانب الشق الاخير من السؤال ، لانني كنت ولا ازال أؤمن بأن الشعر هو **الكلام الممتاز** . والامتياز يتطلب حدا ادنى من الرقابة على الاثر الذي نقرر عرضه على الناس .

عودة الى سدوم ـ خليل حاوي

هذا شاعر ذو شخصية جذابة . وانا اعطي نهار عيني لاصحاب الشخصية في الادب . ان كرامتهم الفنية تأبى عليهم ان يكونوا « ممسحة في فندق الفن الكبير » .. اذا سمح لي خليل ان استعير تعبيره .

خليل حاوي لا يستعير اصابع الآخرين ولا يشرب من محابرهم . انه جديد ، طازج الحروف ، وهذه اول نقطة اسجلها لحسابه .

يحافظ خليل في « عودة الى سدوم » على الخط الذي رسمه لنفسه منذ ان بدأ يكتب الشعر . ولكننا نراه في هذه القصيدة اشد ارتباطا بالشكل والمخطط الكلاسيكي للقصيدة العربية . لقد استسلم خليل لقبضة بحر الرمل القوية استسلاما تاما من اول القصيدة الى آخرها ، ولم ينجه من الرتابة سوى هذه النقلات الموقفة من روي الى روي والشكل الهندسي الذي كتب به القصيدة .

يهدر خليل حاوي في « عودة الى سدوم » بحنجرة نسر . انه يقف عاري الصدر في وسط الزوبعة ليخنق الاساطير .. والخفافيش التي تمتص دمنا . ليدوس التفاهة . ليغسل تاريخا من الانهزامية ويكتبه بشكل جديد . انه يفضح بشجاعة الصعاليك الذين احالتهم غزوات الشرق « لصوصا .. وسبايا .. ومماسح في فندق الشرق الكبير » .

يقف خليل بكبرياء قمة ليجلد بسياط احرفه المؤمنة الجفيان الضئال من اشباه الرجال جلدا يستثير تهليلنا وتكبيرنا . ولا ينسى خليل ـ والسوط يغني في يده ـ شعراء مسلوبي الكرامة مروا في تاريخنا الادبي وجعلوا من الشعر مهنة شحاذة .. واستجداء ..

وما يزال خليل يضرب هنا .. ويضرب هناك حتى تتساقط الاسطورة اشلاء بين يديه . وبعدئذ يبدأ شاعرنا بالبناء وبالتبشير بأولاد له يتحدون بالكبرياء مطالع الشموس :

أترى يولد من حبي لاطفالي
وحبي للحياة
فارس يمتشق البرق على الغول ..
على التنين .. ماذا هل تعود المعجزات
بدوي ضرب القيصر بالفرس
وطفل ناصري .. وحفاة
روضوا الوحش بروما سحبوا الانياب
من فك الطغاة .
رب ماذا ؟ ... رب ماذا
هل تعود المعجزات ...

يا خليل ... لا تنتظر المعجزات ، فقد اتعبنا انتظار المعجزات وتوقعها . على كل واحد منا ان يصنع معجزته بطريقته الخاصة . عليه ان يخترعها . لا تقل كيف ؟ فقصيدتك مشروع معجزة صغيرة ، وبتراكم هذه المعجزات الصغيرة يمكننا ان نبني بلادنا .

حكاية لاجيء ـ يوسف الخطيب

يوسف الخطيب مغني المأساة الاول . اعطاها نهار عينيه

ووهج شرايينه ..

لكنه في « حكاية لاجيء » على غير المستوى الذي عودنا اياه فيما قرأنا له من قصائد . انني أنصحه ان لا يستمر في هذه التجربة الاذاعية التي تجعل فنه تابعا لشرائط اذاعية وفنية معينة وبالتالي تفقده سيادة الكلمة وسيادة التعبير . ان مقتضيات « الاوبريت الاذاعية » دفعت يوسف الى النزول من قمته الى المستوى الذوقي لمستمعي الاذاعات وهو ذوق لا يحسن بشاعر كيوسف الخطيب ان يدلله طمعا بشعبية شعرية هو اكبر منها .

ان اوبريت يوسف الخطيب تطرب ولكنها لا تهز . انها تحرك الشجو وتستثير الادمع ولكنها لا تلهب الاعصاب ولا تضرم الحرائق . وهي تذكرني بشعر الاندلس الباكي على الملك المفقود . وانا اعجب كيف سمح يوسف لنفسه ان يستعير حنجرة الف شاعر مر قبله فيكتب :

عرائس الشوق هذا البين أرقني

من يقنعني ان هذاالبيت هو ليوسف الخطيب وليس لابن خفاجة الاندلسي ؟..

ان عنصر الطرب يجب ان يختفي من شعرنا القومي . وعلينا ان نحرر ريشتنا من تعابير البين .. والارق ... ورسائل الشوق حين نكتب عن يافا .. وعكا .. وحيفا. فان هذه المدن المحتلة لا يكفيها ان « نقرئها السلام » ... ونحمل لها « رسالة شوق » و « نجوى عتاب » .

ان يوسف الخطيب مدعو الى ان يكون لنا « شوبان » ثانيا ، وان يجعل من كل قصيدة يكتبها « بولونيز » عربية تمزق ضمير الحجر ، وتقرب الطريق الى يافا وبياراتها السليبة .

أبواب مغلقة ـ محيي الدين فارس

تربطني بهذه القصيدة لمحيي الدين فارس اكثر من رابطة معرفة .. انها رابطة نسب .. ولحم .. ودم ..

لذلك اجدني شديد العطف عليها ارعاها رعي الاب لاولاده .. هذا طبيعي جدا . فالآباء لا يغضبون اذا شابههم اولادهم في التقاطيع والسمات والملامح .

هذه سعادة حقيقية لا يعرفها الا الآباء ..

المهم ان محيي الدين فارس كان ابنا بارا . ولكن الذي اخذته عليه هو هذا « الكامو فلاج » الذي جاء بشكل مقدمة نثرية .. انا اكره المقدمات النثرية للقصائد ـ يبرر فيها الشاعر اقدامه على كتابة قصيدة عارية .

اكيد ان التجربة هي تجربة محي الدين فارس نفسه ولكنه الصقها في « البورجوازي » .. المسكين انسجاما مع « موضة » الالتزام .. كأن الكادحين والشغيلة لا يعشقون .. ولا يستقبلون النساء في غرفهم . ولا يمارسون الهوى الا اذا سمح لهم بذلك مجلس السوفييت الاعلى!..

انا على يقين من ان محي الدين فارس كتب قصيدته اولا ثم بحث عن مبرر لنشرها فلم يجد اضمن من الحديث عن «رصد الذبذبات النفسية بواسطة عنصر الهارمون» ليرضي عنه دعاة الالتزام واصحاب الادب « الهادف » .

يا ليت محي الدين ترك قصيدته دون تبرير ودون ان يشفعها « بقائمة بالاسباب الموجبة » وبكلمة « .. واخيرا نجحنا » التي لم تنجح .

الفن الصحيح يبرر نفسه بنفسه ولا يحتاج الى حملة اقناع ..

في المقهى ـ نزار قباني

قصيدة لي كتبت منذ اكثر من ثماني سنوات . ونامت في ادراجي لتستيقظ الآن وتأخذ محلها في الطبعة الجديدة من « قالت لي السمراء » . وقد خطر في رأسي ان اهملها ، الا ان انسجام جوها مع الجو العام « لقالت لي السمراء » شجعني على أثباتها في الطبعة الجديدة .

القصيدة عادية وليس فيها طفرات تعرقل حركة التنفس او تجعل الاعصاب رمادا .. انها تسير في خطوط مستوية وانا اكره الخطوط المستوية في الشعر . انها عادية .. عادية .. وتكاد لا تكون لي . انك لا تجدني فيها الا من خلال بيت واحد :

من انا ؟ .. خلي السؤالات .. انا
لوحة تبحث عن الوانها ..

هذا بيت اعطف عليه شخصيا ، وهو يخرج القصيدة من استوائيتها .. اما بقية ابيات القصيدة فهي تزحف على السفح . انها لا تستطيع ان تطير .. لانها لا تملك وسائل التحليق وعدة العصافير المهاجرة .

نزار قباني

القصص

بقلم مطاع صفدي

ما احببت يوما ان اكون ناقدا . واذا انا اقرأ القصص ، فانما احكم فيها ذوقي الخاص . وكثيرا ما يسير ذوقي هذا مع النوع الذي اسعى ان يحقق اهدافه ما اكتب من قصص . ولهذا ارجو من كتاب القصص في العدد الماضي، ان يعيروا هذه الناحية انتباههم . فانا ما آمنت قطعا ان النقد الادبي يمكن ان يكون موضوعيا . اذ ان الموضوعية شرط العلم، ولكنها عدوة الفن . واذا كان بين النقاد من يناضل من اجل موضوعية علمية في نقده ، فتلك هي محاولة فاشلة تخلط بين ميدان العلم والفن خلطا يهجن كلا من العلم والفن معا .

ولكن اذا كان محك النقد ذوق الناقد ، فلا يعني هذا ان الذوق الخاص طريق لا توصل الى الحقيقة ابدا . بل على العكس ، فالذوق الذي اقصده ان هو الا الحاسة الجمالية الكاشفة التي تقيس لصاحبها مدى ما يحققه الاثر الفني من اصالة وجدة معا . وبقدر ما تعظم امكانية الكشف هذه في الذوق الشخصي ، بقدر ما يتلاقى مع الذوق العام ، او على الاقل مع احد تيارات هذا الذوق . ومن هنا لا يبقى الذوق الفردي مجرد اعتباط هوائي. انه يحقق نوعا آخر من الموضوعية ، هي موضوعية التكامل الفني في الاثر المبدع ، عندما يقيّم من قبل جمهور القراء ، او من قبل نوعية معينة فيه .. لا تتذوق بشكل مغفل فحسب ، ولكنها تعي ما تتذوق ، أي تقيم الانتاج ، والقيمة دائما مقياس عام ، وليس نزوة فردية .

امتاز العدد الماضي بوفرة قصصه اولا ، بالنسبة لاعداد اخرى ، وامتاز كذلك بنوعية الكتاب . فلقد كان جلهم ممن عرف عنهم الانتاج القصصي ، وممن كان لهم فيه تفوق وتخصص وملامح شخصية فاصلة.. وهم ، بعد ، زملاء اصدقاء ، اتعاطف معهم ، اكثر مما اقسر على ان اقف منهم موقف حاكم او مشرح . ومن هذا التعاطف ، من حبه وانفتاحه وتفاؤله ، استمد مشروعية هذا الموقف . فضلا عن اننا جميعا اسيرون في النهاية للقيمة الادبية الخالقة ، التي هي مبعث الحقيقة في عمل منتج او ناقد .

وامتازت ثانيا قصص العدد الماضي ، بانها تصدر جميعا عن ادب المشكلة ، او ما اصطلح على تسميته بالالتزام او بالادب الهادف ، وذلك جريا على عادة « الآداب » منذ تأسيسها . ولكن ارتباط هذه القصص بالالتزام يختلف من واحدة الى اخرى . وذلك امر طبيعي . اذ ما كان يعني الالتزام التعميم ، او ادب الامر ، كما يحلو لبعضهم ان يتصوره . واعني بالتعميم هذه المنهجية الصارمة التي تفقد الادب عفويته ، والاديب شخصيته . واعني بأدب الامر ، هذه الفكرة السابقة على الايحاء الصحيح والتي تجعل الادب مهنة ، او وظيفة في الدولة .

وعلى كل حال فحديثنا عن كل قصة بمفردها يكفل لنا ابراز دقائق الموقف الشخصي والاختلاف الالتزامي عند كل اديب على حدة . واذا كان لنا ان نتتبع بالحديث ، الترتيب الذي طبعت فيه القصص بحسب قربها او بعدها عن الدفة الاولى من المجلة ، فليس معنى هذا اننا نقر تصنيفا قيميا اتبعه رئيس التحرير قصدا أو عفوا .

اخي الشيخ

الدكتور سهيل ادريس يبدو مقلا في انتاج القصص القصيرة . والقريب منه يقدر مدى الجهد الذي يبذله في سبيل مئة صفحة من الحجم الكبير ، ومن ذات الخطوط الصغيرة والحروف المكتظة على بعضها .. مجلة شهرية ، ودار للنشر ، ووالد لعائلة طيبة .. ولكن ليس معنى هذا انه اصبح قيما على الادب ، دون ان يكون منتجه كذلك . فهو يلجأ الى الرواية بدلا من القصة ، ويتهويه كتاب كامل ، وليس صفحات من كتاب او مجلة .. وهذا فصل من روايته الثانية القادمة ، كان يمكن ان يظهر ضمن اطار قصة صغيرة كاملة لو لم يشر الكاتب على الهامش الى انها قصة .. أجل ، ولكنها مع ذلك فصل من رواية ، لها ما يسبقها وما يتبعها من فصول . والقارىء المسرع ما كان له ان ينتبه الى جزئيتها لولا هذه الاشارة .

هذه الاشارة توقعنا في حيرة . فهل على الناقد ان يحكّم في هذا الفصل نظرية الرواية ام نظرية القصة الصغيرة .. ومع ذلك ، فلنترك النظريات ومقتضياتها ، ولنقبل على هذا الاثر كما هو معروض تلقاءنا .

ان موضوع هذه القصة يبرز لك سريعا من خلال مقدمة قصيرة ، اريد منها ان تضع القارىء مباشرة في قلب الحادثة . فهو يدور حول محاولة شاب الانعتاق من المشيخة . ولكن هذه المحاولة تشرك في أزمتها عائلة كاملة .. احسب ان الرواية كلها تعني بوصف حياة هذه العائلة كمجال انساني ونموذج اجتماعي معين . ومن هنا كان للقارىء ان يتعرف بين لحظة واخرى على وجه من افراد هذه العائلة من سامي ، بطل القصة ، الشيخ وغير الشيخ معا ، وهو الشاب الثائر والرحيم بأبيه ومعتقداته في الوقت ذاته ، وهدى الاخت الراوية للقصة ، والتي لم نعرف عنها غير الدور الخارجي.. نافذة الرواية ، ان صح القول ، او الجدار الرابع المرفوع ، وفوزي ، الاخ الاكبر يلعب دورا وسطا بين الاب له منه صلف السيادة ، وبين الاخ الاصغر ، له منه جيله وشيء من الحنان الغامض .. والام التي تمر عابرة من خلال دورها الطبيعي العادي كأم .. والاب وهو الشخصية المقابلة لكل ثورية سامي السرية .. والتي انتهت بأن اعلنت عن ذاتها برمي العمامة والجبة ـ عمامة الوالد ـ على الارض . وهذا الموقف الاخير الرائع حقا .. فيه اختلط التحدي عند سامي بين ان يكون تحديا لمنطق التقاليد والمحافظة ، وبين ان يكون تحديا للاب ، كأب ، كانسان .. تهان معتقداته ، ورموز هذه المعتقدات دفعة واحدة.. انقلاب المواقف في نهاية الفصل هو ذروته حتما : فان فوزي الاخ الذي كان يتقمص شخصية ابيه في السيادة والتسلط ، كما يبدو في منتصف الفصل ، ضد الاخ الاصغر سامي ، ينقلب الى شخصيته الحقيقية ازاء الذروة الثورية الاخيرة ، التي تعيده الى دوره الطبيعي في الجيل ... وعبرت عن هذا الانقلاب لفتة بسيطة من الكاتب ، بارعة ، ختم بها الفصل ... فلقد دنا فوزي متمهلا وامسك بذراع سامي وطوق كتفيه .. ودخلا غرفتهما معا !

وراء صراع المفاهيم يقوم عمق عظيم غني هو صراع الانسان والانسان. فهذه العائلة تخفي وراء اصطداماتها ، وراء جيليها ، عضوية الحياة ذاتها ، وتتمثل في الحب ، الحب الذي يجمع البشر الى بعضهم فوق كل صراع ، والاحترام وهو مفتاح القيمة في هذه الخلية من الانسانية ... عائلة اسلامية تسعى الى الانتصار على ذاتها ، الى التغلب على جزئها المتحجر في سبيل جزئها الحي المتطور والمطوِّر معا .

ان قذف العمامة والجبة الى الارض رمز كبير ، يخفي وراءه الحادثة الحقيقية لهذه الراوية . ولا نريد ان نتعرض لهذا العمق الوجودي من خلال فصل صغير ، فذلك منوط باخراج الرواية وقراءتها كلها .

وبعد .. استطيع ان انتبأ ، من خلال هذا الفصل ، ان رواية سهيل الجديدة تتعرض لصعوبتين كبيرتين : اولاهما تنشأ عن شدة تكرار هذا الموضوع ـ صراع ضد التقاليد ـ في عالم القصة وخاصة بمصر . وثانيهما تأتي من طريقة العرض الفني . فاذا كانت الرواية كلها تتبع ذات اسلوب الفصل المنشور، فيمكننا ان نقول انها طريقة تصويرية من خارج مع تدخل الكاتب المستمر لاجلاء بعض الحركات والجزئيات المخترة تلقاء حواس القارىء . ولنفسر ذلك : فيما يتعلق بالصعوبة الاولى وهي قدم الموضوع ، فانها صعوبة يمكن التغلب عليها بخلق الموضوع خلقا فنيا جديدا من خلال حادثة خاصة توصف الى اعماقها وتلاحق الى ادق جزئياتها التعبيرية ، حتى تنشيء عالما ايحائيا ذا رنين فريد لا يتكرر .

ان قدم الموضوع لا يعني عدم جدته . وخاصة اذا ما انتبهنا الى مدى واقعيته وتأثيره في حياة العرب الحاضرة ، فمشكلة البعث كلها تكاد تتأزم بين قطبي الثورة والمحافظة ، من اشكالها الاجتماعية الظاهرة الى اشكالها الميتافيزيقية الغامضة .

ولقد قلت ان تجديد عقدة معروفة يكون بطرح حادثة فريدة تدرس الى اقصى تحولاتها الواقعية . فجريمة الغيرة مثلا تتكرر ، ولكن يبقى لكل حادثة منها طرافتها الخاصة . وهذه الطرافة تحتاج الى ان نقتطع من الواقع جزءا منه ، يبقى واقعا حيا ، ومع ذلك يتجاوز ذاته الى واقع فني موح . وحادثة المشيخة طرقها جديد على ما أحسب .. وخلقها ثانية ممكن بالنسبة لسهيل .. نظرا لالتصاق هذه الحادثة بحياته . .

بقيت الصعوبة الثانية وهي طريقة العرض : ان الصديق سهيل يلجأ

في هذه الرواية ، على عكس روايته الاولى (الحي اللاتيني) ، الى اسلوب الوصف الخارجي مع بعض الانارات الداخلية الهامشية . والوصف الخارجي ، او التصوير على مسافة ، يتعرض لخطر التسريد في الحكاية .. ان لم تكن هناك قدرة خارقة في الموهبةالفنية.وعندئذ يجب ان يركز الوصف الخارجي تركيزا فنيا ، حتى ينقلب الى اشبه بالرمز ، دون ان يكون رمزا بالمعنى الاصطلاحي ... وصف الجو ، ابراز بعض حركات الجزئية الموحية ... الخ

صحيح ان الطريقة الخارجية تستمد قيمتها من البساطة والوضوح . ولكننا قد نضحي بالفن الذاتي ، والعمق الانساني .. نضحي بلونيات التجربة الفردية اللامتناهية في ثروتها الوجودية وقدرتها على خلق الجو العابق ... الجو الذي يدمج القاريء بقراءته ويقضي على كل مسافة بينهما وبالتالي على المراقبة الخارجية المنفعلة بالصدى ، وليس بالوتر الصادح ذاته . ومع ذلك فانني اتحدث عن تنبؤات : فيما سيكون عليه الموضوع والطريقة .. وربما اختلف قليلا عن حدسي ، وارجو ذلك، في الرواية ككل .

واذا كان تنبؤي صحيحا فتبقى المسألة منوطة ببراعة الكاتب واصالته سواء كانت طريقته خارجية ام داخلية .

في الطريق الى برك سليمان

عندما نشرت قصتي « المزيفون والثورة العظيمة » اعترض علي بعضهم انه كيف يمكنني ان اكون في الجزائر وحربها – وهي موضوع القصة – دون ان ابرح دمشق . واجبتهم حينئذ ان القصاص او الروائي ان كان عليه الا يكتب الا من وحي حياته ، بمعنى وقائع هذه الحياة فحسب ، فلن يقدم لقرائه الا قصة واحدة ويسكت بعدها الى الابد . غير ان حياة الاديب ليست هي وقائعه اليومية فحسب ... حياته هي كل واقعة اصيلة تهز وجدانه الفني وتحرك تعاطفه الانساني الى درجة ان يستطيع خياله تشخيصها له كمعنى اكثر منها كمادة ، وذلك بعد ان تبناها الاديب وجعل حياة ما بعيدة او قريبة حياته هو . وقصة الآنسة عزام هذه من هذا النوع الذي لا تلتصق مادية وقائعه بشخص الاديب مباشرة . قصتها هذه بؤرة فنية تفجيرية لمأساة فلسطين من خلال حادثة صغيرة فردية : زوجة ترقب زوجها وهو يرمي ببندقيته بعد ان نفذت مؤونتها دفاعا عن بيت صغير من الحجر الابيض . النظرات ، الحركات الجزئية .. القرار الصغير بالفرار .. والاب يحمل طفله ، وأثناء الركض تستقر رصاصة ما في بقعة ما .. وعند تجاوز الخطر يكون الطفل قد مات بين يدي ابيه ..

واخيرا : النازحان امام قبر الطفل الذي انتقل من النوم الى الموت .. من سرير في بيت حجره ابيض ، الى حضن ابيه ، الى حضن التراب ... الجميع امام القبر ، العرب كلهم !

هذه من ابدع ما تفتقت عنه قريحة الاديبة سميرة كفكرة . ولكن العرض كان دون مستوى الفكرة . وذلك يعود الى بطء حركية الوصف والابراز والتأزم . بمعنى ان الكاتب كان يؤلف هذه القطع من الحجر بيد من الثلج . وعوضا عن التأطير الانساني المطلوب في هذه القصة الى درجة نهائية ، كان هنا تلخيص فكري .. اجل انها قصة محكية ، انها قصة ملخصة وليست خالقة ..

ان هذا الفلاح يفكر احيانا ويلقي ببعض الحكم وخاصة عند القبر . ولو تركت الانسة سميرة هذه الحكمة للقاريء لقل الاصطناع في ادراك شخصيته واعطائها من خلال ايماءة واحدة .

وهناك كذلك عقدة رائعة مرت بها الكاتبة دون ان تكشف عن ثروتها الهائلة : وهي الاهانة ، مركب الاهانة الذي يعيشه العرب تلقاء كارثة فلسطين . وقد بدأت الاهانة في هذه القصة منذ ان راح يقر الفلاح بعجزه امام زوجته ... وبعجزه عن حماية بيته .. ثم طفله .. لقد اخرجت هذه القصة ضمن اطار المعاني العامة التي ملها القاريء ، عن فلسطين ، وشحبت هذه القصة البؤرة واضاعت خصوصيتها كأنها لم تكن.

الماء العذب

أحسب انني سأقف عند هذه القصة .. انها قصة لي .. من العدد الماضي ما قرأت كثيرا للاستاذ الدباغ . وقد بدأت معرفتي به،ومعرفة القراء بنا ، منذ ان زاملني في النجاح بمسابقة القصة التي اجرتها « الآداب » منذ اربع سنوات .

معلم في قرية ظمآن الى الماء العذب ، ينتهي الى مضاجعة ساقية الماء بينما جرة الماء العذب تتحطم ويندلق ماؤها .

هذه قصة من داخل ... زخم من صور وافكار وانفعالات متنافرة مضطربة بالنسبة لعقل مرتب ، ولكنها تستمد وحدتها كلها من زوبعة أزمة مكثفة في شخصية تلوك ذاتها باستمرار ، تدور على ذاتها ، باستمرار ، تجتر حقيقة اللامعنى ، اللاانسان ، اللاقيمة في كل الاطار الانساني سواء ذلك الاطار الآني الذي يحيط به اعتبارا من عباس ومن الصبيان ، ومن مجلس العشية القروي ، وسواء الاطار ، الذي تصلب فيه من الماضي، من المدينة والمقهى والسينما والرفاق بين الارصفة والمواخير ..

الماء العذب .. رمز فاغم مليء . الماء العذب من السماء ، من سيقان ، مجرد سيقان ، في ماخور المدينة ، او حول مزابل القرية ، او من انحناءة الساقية عند عتبة الغرفة التي ظللها مساء الاصيل .. وظلل نفسه هو ضجر وقرف وظمأ الى الماء العذب . تلك شخصية حية نابضة بمشكلتها، تنبع كلها من نقطة سوداء في صميمها ، من ارادة اللاقبول للعالم ، لما يقدمه العالم من صور ، من منبهات ، من اسرار واعماق ، من نماذج . انها يقظة الحرية تقذف بوجودها وكأنها اولا شؤم لا يتناهى . شؤم هو عصير قضية الكآبة ، التي ينطحن بين قرنيها انسان عربي ما .

شيخ القرية ، او ذل القرون والاحقاب . الشرطة ، شرطة من ... اصحاب الذل ، ذل القرون . المعلم تمنى لو يصبح شرطيا ، يتربع كله وراء الخوف والارهاب !. بينما كانت القربة تدلق ماءها .. كانت موسيقى اخرى تنبعث من نفس المعلم الضائع .. انه يكسب شيئا واحدا الآن .. الآن ، وليس في زمن آخر : يكسب جسد الساقية .

يمكن القول ان قصة (الماء العذب) بقعة النور الوحيدة في وجود مثقل بكآبة لا يعرف لها سببا سوى انه عبد لضجرها .. عبد لارادة اللاقبول لاي شيء .. من اجل اي شيء ، حتى ولو كان شارب شرطي .. او جسد الساقية .. قصة الماء العذب تحقق صبوة موفقة لادب المشكلة ، لادب الشخصية المتأزمة ، لادب الواقع المعوار . ولكنني لمحت عند الدباغ نوعا من الدوران ، من عدم الانصياع التام لوحيه ، لجو قصته ، انه يناوش نقطة يدور حولها ، ولكنه لا يدخلها حقا .. هذه القصة ما زالت تحافظ قليلا على شبه المسافة اللعينة . اتخشى ان يقال عنك انك سلبي ، سوداوي ، عدمي ..

هذه الالفاظ التي تتداولها المرايا المسطوحة ، المسفوحة كلها على وجهها ...

هذه القصة اتيناها انا ، وان كنت لا ترفضها تماما انت ، ولا تقبلهـا تماما . جعلت الحديث عنه هو .. وتلك خطوة لها ما بعدها . ثم وصفته ... اي انك ما زلت عند حدود الوصف ، وان كان وصفا عتيبا .. على عتبة الداخل ... تماما كما ضاجع المعلم الساقية على عتبة المخدع ... في بعض المقاطع يضعف التوتر حتى درجة الخور ... وتصعقك ارادة الوضوح ، فتفسر وتشرح .. تكف عن القذف ، تكف عن اسقاط الجملة خاما ... تنظمها ، تصقلها .. ويخف لهاث القاريء ، بذلك تصبح عدوه ...

ارجو ان اراك قريبا !

يقـــــظة

قصة معربة بتصرف ، يجعلنا لا نعرف مدى مطابقتها للاصل ، انها قصة نتيجة تعمد فكري ، موقف تجريدي ، حبذا لو كانت مقالا .. فهي في الواقع قصة آلية من نوع هذا السباب المستمر ضد الآلة وانسان الآلة . ان مثل هذه القصة تدفعك الى ان تتأمل في نقاشها الفكري ، اكثر مما تستحوذ عليك وجوديا . ولكن الطريف عند الكاتب انه جعل الآلة تطمح بان ترتفع الى مستوى الانسان ، الروح . ثم بعد التجربة ترفض الانسان ، وتقبع في آليتها . اذ الآلة ، هذه المخلوقة ، تجاوزت خالقها . سلبته روحه ، واعطته بدلا منها وحدة صماء ويأسا مفزعا ... اذن تلك هي قصة مصنوعة كذلك . ولا اراني بحاجة الى التحدث عنها اكثر . فالحوار مقطوع بيني وبين كاتبها ...

اما اسلوب السيدة احسان الملائكة في هذا التعريب المتصرف ... فانه جعل القصة نوعا من الانشاء الادبي .. انسجام ، جمل قوية ، لغة صحيحة ... كل المثل الاعلى .. اليس كذلك ؟..

وتخطت صعوبات الترجمة الحرفية .. وهذا حسن كذلك . وانه لمن السرور ان نستمع الى صوت آخر من العائلة الملائكية ، الى جانب صوت الشاعرة المبدعة الآنسة نازك . ولكنني اعتقد ان السيدة احسان توافقني على ان هذا النوع من القصص المركب ، لا يستطيع ان يحرك في القاريء جماع نفسه. او انه على الاقل يظل يحمل القاريء عبء خيال لا يمكن ان يختلط في وجدان القاريء بحياة او واقع .. كل ذلك لان هذا النوع من القصص كان في اساسه عصارة تأمل اراد ان يسكب نفسه في قالب نزوة قصصية ، فاضاع وضوح المقال والتتابع المنطقي ، وافقد القاريء لذة التمتع بقصة يود ان يجابهها على انها حياة ، وليس مجرد خيال يظل يذكر القاريء بانه خيال وخيال .. وفكرة مجردة . وعوضا من ان نلقي بالخيال في مثل هذه الازمة فلنسمه اصطناعا . اذ تظل لكلمة خيال شحنتها الفنية الالهامية . بينما وصف اصطناع يسمي هذه القصة باسمها الحقيقي .

غير ان مثل هذا المأخذ لا ينال شيئا من عمل السيدة احسان . بل على العكس فقد اجادت فهم القصة ، واجادت التعريب والتصرف معا . حتى ليحسب المرء ان القصة صيغت في اساسها بالعربية .

سر الطفل المدلل

وهذه كذلك قصة من فلسطين ، ولكن في هذه المرة سلكت مسلكا طريفا غريبا . فلقد كانت الحدوس الفنية التي تستوحي عادة من كارثة فلسطين تتخذ مادتها من الجانب المغلوب : العرب ، وخاصة منهم عرب النكبة . والجديد في قصة (سر الطفل المدلل) ان الكاتب اراد ان يبرز المنعكس الخلفي لدور طرف ثالث في هذه النكبة وهو طرف المراقبين الدوليين . ولقد تقمص السيد كرزون الشخصية الوجدانية الداخلية لواحد من المراقبين .. وفكر : ترى من هو المراقب .. لن يأتي الى فلسطين الا انسان شبه يائس ، وهنا كان المراقب رجل بوليس خائبا في حبه . ثم ايكون المراقب رجلا سويا ، ايمكن ان يكون انسانا يتحسس عناصر الكارثة الماثلة لحواسه ليل نهار ... ان العنصر الايجابي في هذه الشخصية هو محصلة التشابك السلبي القائم بين كونه عاشقا فاشلا نافيا ذاته عن وطنه، وبين فشل العملاق الكبير.. عرب القمقم، تجاه ضآلة البشرية التي كتب لها ان تلعب دور الطفل المدلل على امريكا وتوابعها ... يغفر له كل شيء ويجاب لكل طلباته بينما العربي الزمته الهزيمة قدرا واحدا لا يتغير .. ان ينفى وجوده كلما سنح له ان يعلن عن وجود له ..

والقصة قسمان واضحان ، قسم يحاول فيه الكاتب ان يصف العواطف الثابتة الذاتية التي يعيش عليها كل مراقب تستيقظ انسانيته بين حين وآخر ، فيتفاعل مع حقيقة القضية دون ان يعبأ بزيف السياسة .

والقسم الثاني قصة قائمة بذاتها تأتي كبرهان واقعي يؤدي الى مثل تلك النفسية التي يعيشها المراقب .. وهي التي فيها يصطحب المراقب صديقا له عربيا الى ارض اليهود ، في احد التحقيقات ، تحت اسم صحفي لوكالات أجنبية . وفي ارض اليهود يجابه المراقب بقصة جزئية اخرى وهي انه ملزم بتسلم جثتي فدائيين عربيين .. فيصبح مجرد ناقل اموات، وفي الوقت ذاته يفرح لتحرك العملاق المقيم في ارض العدو. وتحدث لسعيد قصة اخرى وهي انه يفاجأ باخته الصغيرة التي ضاعت منه ابان النكبة وقد اصبحت عاهرة يستخدمها اليهود في الفندق لتسلية الاجانب.. فينتحر الاخ كذروة للمهانة المستمرة منذ النكبة .. واما المراقب فيضطر الى ان ينقل جثته باعتباره عربيا متسللا ثالثا ... ويقيد اسمه في سجل المتسللين المقتولين .. وفي النهاية تفرج كربة المراقب عندما يدعى للعمل فجأة ، فقد فتح المصريون نيرانهم على اليهود ورفضوا اوامر المراقبين!

ان عيب هذه القصة يتمثل في هذا التقسيم بين عرض لنفسية المراقب ، وعرض لقصة اخرى كبرهان على هذه النفسية . بينما كان يمكن للكاتب ان يمازج بين الناحيتين فيتغلب بذلك على استطراد مفاجيء، وعلى فقر رتيب في العرض ، وتخلخل في التركيز ..

يبقى ان طرافة الموضوع تعطي لهذه القصة قيمة خاصة ذات مغزى جميل ... تتمثل في كشف الجانب الانساني المتناقض في دور هذه الفئة الثالثة المشاركة في الكارثة .. وراء الدور السياسي العسكري المعروف عن المراقبة الدولية .

★

ان رمزا ، كقذف العمامة الى الارض ، ورمزا كقبر الطفل امام الذئب العربي ، الحقد العربي ، ورمزا كالماء العذب في صحراء الجيل التائه ، ورمزا كاضافة جثة الى جثة في سجل المقتولين ، تشكل هذه الرموز كلها صورا لحقيقة واحدة هو واقع المشكلة من خلال وجدان انسان عربي جديد ... وهذا هو الالتزام المشروع ..

اما فنية كل قصة فتلك هي المحاولة الناقصة التي علينا ان نتتمها ابدا ...

دمشق

مطاع صفدي